

## اقتصاد المعرفة في ظل جائحة كورونا: التحوّلات في التّعليم العالي

إعداد: البروفسور حسان م. خشفه / المدير الأكاديمي للجامعة اللبنانية الدولية، لبنان.



منذ بدء وباء كورونا المستجد، وحتى قبل تحوّله إلى جائحة على مستوى العالم، فقد بدأت عدّة أسئلة تطرح على مستويات عدّة، وخاصّة في المجال الإقتصادي: كيف أثّرت الجائحة على إقتصاديات الدول بشكل عام، وعلى الإقتصاد المتّصل بالتّعليم العالي بشكل خاص؟ وكيف يمكن لهذا التأثير أن يؤسس لنشوء تحوّلات في قطاع التّعليم العالي؟

### مقدّمة

إنّ جائحة كورونا، والتي وخلال أسابيع قليلة قد أوصلت العالم إلى أزمة صحيّة -إجتماعيّة- إقتصاديّة غير مسبوقة لازلنا في أتونها الآن- وسوف توسم زماننا إلى أمد بعيد- قد أثّرت بشكل قاسٍ على قطاع التّعليم العالي في كافّة بلدان العالم [1]. فمثلاً، تشير التنبؤات إلى تدنٍ بمعدل 15-25% في نسب التّسجيل، بحسب المكان الذي تجري به الحسابات، علماً أنّ الجامعات قد قضت ما يقارب السنتين للتعافي من مفاعيل وباء SARS [2].

لقد أظهرت جائحة كورونا الحاجة الماسّة لزيادة المنظورات المحليّة والعالميّة لتحليل الآثار المختلفة لهذه الجائحة على المديّات القصيرة والمتوسطة والبعيدة [1]. لقد تطورت هذه الأزمة الصحيّة بشكل سريع لتصبح أزمة إقتصاديّة وثقافيّة وإجتماعيّة. وبالتالي، فقد تمّ إتخاذ إجراءات مباشرة لضبط وخفض مستوى إنتشار الوباء بشكل رئيس، ما أدّى إلى إغلاق بلدان بكاملها، وإعادة الحدود ما بين الدّول والشّعوب وكان على هذه الإجراءات أن تؤثر على جملة من الأمور، ليس أقلّها تلك التي أثّرت على التّعليم العالي [1].

فبحسب اليونيسكو، والتي بدورها تراقب مدى تأثير الجائحة على التعليم، فقد قامت حوالي 170 دولة بتطبيق الإغلاق التام، ما أثار على أكثر من 90% من الطلاب، أو أكثر من 1.52 مليار طالب. كما أن ما يقارب 60.2 مليون مدرساً لم يعودوا يعملون في صفوفهم [3].

ولقد أثرت هذه الإجراءات بشكل مباشر على التعليم الجامعي، بحيث غيرت، وبشكل دراماتيكي، الظروف التي كان على التعليم الجامعي أن يتكيف معها في مسيرة البحث وإنتاج المعرفة وأيضاً ما يعرف الآن بـ "التعليم الإلكتروني الطارئ": فالطلاب بحاجة للمساعدة؛ والموظفون يواجهون تحديات غير مسبقة، بما في ذلك الأمان الوظيفي؛ قيادات الجامعات اضطرت لإعادة إنتاج طرق جديدة في كيفية إدارة الحرم الجامعي [1].

وفيما يرى بعض الباحثين أن جائحة كورونا قد قدمت للجامعات فرصة لا تحدث إلا كل جيل بأن تضع الجامعات وراء ظهرها كل إستراتيجياتها غير المجدية [4]، يبدو أن معظم الجامعات بدأت ترى تأثير التحول إلى التعليم الإلكتروني أو تأثير الأزمة الاقتصادية على الطلاب وعائلاتهم، بما في ذلك التسكير القصري للجامعات لمديات قصيرة، متوسطة، وطويلة. إن المستقبل المالي القاسي التي ستواجه مؤسسات التعليم العالي، مع احتمال أن بعضها قد ينهي أعماله، سوف يضعف قابلية التعليم العالي في تحمل مسؤولياته أمام المجتمع [1].

### جائحة كورونا

في كانون الأول/ ديسمبر 2019، انتشر فيروس نزلة صدرية غير معروف المصدر في مدينة ووهان الصينية. وفي 9 كانون الثاني/ يناير 2020، أعلنت منظمة الصحة العالمية (WHO) رسمياً عن اكتشاف فيروس تاجي جديد، أسمته SARS-COV2. وهذا الفيروس هو العامل الممرض (Pathogen) المسؤول عن المرض التنفسي المعدي المدعو COVID-19، أو كورونا [5].

وقد انتشر COVID-19 بسرعة حول العالم، وأعلنته منظمة الصحة العالمية جائحة عالمية بتاريخ 11 آذار/ مارس 2020 [1].

وبحسب الـ WHO، ففي 1 نيسان/أفريل 2020 كان هناك 783,360 حالة مثبتة من COVID-19 في 205 بلداً حول العالم. بعد شهر واحد، في 7 أيار/مايو 2020، بلغ عدد الحالات المثبتة 3,634,172 حول العالم، والتي تسببت بـ 251,446 حالة وفاة. وفي نهاية حزيران/يونيو 2020، بلغ عدد الحالات المثبتة عالمياً أكثر من 10.5 ملايين حالة، وتجاوز عدد الوفيات 511 ألف وفاة [5].

بعد عدة أشهر من تفشي الفيروس، تمكنت الصين، بفضل الإجراءات الصارمة التي اتبعتها لجهة التباعد الاجتماعي والحجر، تمكنت من تقليص عدد حالات الإصابة جزاء المخالطة المحلية لصفر. وقد شجع نجاح هذه الإجراءات التي اتبعتها الصين وأوصت بها الـ WHO بقية الدول لأخذها والعمل بها. ومع حلول الأول من نيسان/أفريل 2020، فقد كان أكثر من 3.4 مليار إنسان، أي حوالي 43% من سكان الأرض، تحت الحجر المنزلي في أكثر من 80 دولة أو سلطة حول العالم. وكان لهذا الحجر والتباعد الاجتماعي التأثير المباشر على التعليم بشكل عام والتعليم العالي بشكل خاص، وبالتالي على ما يعرف بـ "إقتصاد المعرفة" [1].

### إقتصاد المعرفة

ظهر حديثاً نمط جديد للإنتاج في معظم إقتصادات العالم. التعبير الأبسط والأكثر دلالة هو إقتصاد المعرفة. ويمكننا أيضاً تسميته الإقتصاد التجريبي، وذلك للإضاءة على أهم خصائصه العملية. يعتقد الباحثون أنّ هذا النوع من الإقتصاد يعد بتغيير - لمصلحتنا - بعض أكثر العادات العامة المتجذرة في الحياة الإقتصادية، وبتحسين - بشكل دراماتيكي - الإنتاج والنمو [6].

وعلى الرغم من عدم وجود تعريف موحد لإقتصاد المعرفة، إلا أنّ قاموس أكسفورد الحيّ يعرفه على أنه " الإقتصاد الذي يعتمد فيه النمو على كمية ونوعية المعرفة المتاحة، والوصول إليها، بدل أساليب الإنتاج التقليدية" [7].

### التعليم العالي في ظل كورونا

لقد غيرت جائحة كورونا المفهوم المتعارف عليه لعمل مؤسسات التعليم العالي. لم يكن التغيير على مستوى طرائق التعليم فقط، بحيث استبدل - بين ليلة وضحاها - الحضور في المجمعات الجامعية إلى التعليم عن

بعد، ولكن أيضاً على مستوى التّحدّيات الماليّة التي تواجه المؤسسات الجامعيّة في ظل الإنكماش الإقتصادي المحلي والعالمي [8].

ويمكن القول أنّ التّدقّق النقدي يمثّل التّحدّي المباشر لمعظم المؤسسات الجامعيّة. فبينما تخسر الجامعات جرّاء الإقفال الإلزامي بعض مواردها ( مواقف، مطاعم، قرطاسيّة وكتب، إلخ ) فهي تواجه أيضاً بعض الأكلاف الغير متوقّعة، كالتّعويض الجزئي للأقساط أو بدل السّكن، بالإضافة إلى تحسين البنى التحتيّة للتّعليم الإلكتروني. ولكي تضمن الإستمراريّة على المدى القصير والمتوسّط، فقد تحتاج بعض المؤسسات للقيام بترتيب سريع لأوليّاتها [8].

وما يزيد طين مشكلة التّدقّق النقدي بلة هو عدم التّأكّد من مصير العام الدراسي القادم. ففي حال عدم عودة الطّلاب إلى مجمّعاتهم مع بداية العام الدّراسي، فستواجه الجامعات نسب تسرّب غير مسبوقه وغير متوقّعة من الطّلاب الذين لم يستسيغوا التّعليم عن بعد أو أولئك الذين لا يستطيعون تحمّل أعباء الجامعة الماليّة في ظلّ الأوضاع الإقتصاديّة الخانقة. كما يمكن لآخرين أن يختاروا البقاء قريباً من ذويهم في هذه الأوقات الصّعبة والغير أكيدة. وسوف نجد حتّى الجامعات الأكثر غنى من حيث الموارد أنّها لن تستطيع التّنبؤ بأعداد الطّلاب في العام القادم [8].

تفصيلياً، فقد أظهرت دراسات البنك الدّولي أنّ النشاط الجامعيّ قد تأثر جرّاء الجائحة بطريقة مباشرة. وقد بيّنت الإحصاءات أنّ 96% من الجامعات حول العالم قد ألغت كلّ النشاطات في المجمّعات الجامعيّة ؛ 91% من الجامعات قد أوقفت المجمّعات بشكل كامل؛ حتّى مع وجود أسفار ضروريّة متعلّقة بعمل الجامعات خارج مدنها، فقد ألغت 88% من الجامعات أسفار أساتذتها وموظّفيها؛ وألغت 82% أسفار الطّلاب (Exchange) [9].

لقد أثرت الجائحة على أكثر من 1.5 مليار طالب، من بينهم 200 مليون طالب جامعي، حول العالم، ما اضطرهم إلى متابعة الدروس عبر الإنترنت مخافة العدوى. إلّا أنّ هذا الخيار لم يكن سهلاً أبداً، خاصّة في الدّول الأفريقيّة مثلاً، حيث أنّ 24% فقط من المجتمعات الأفريقيّة تستطيع الولوج إلى شبكة الإنترنت، علماً أنّ طريقة الإتصال ضعيفة أيضاً [10].

## الجائحة واقتصاد المعرفة

لا تزال الجائحة تؤثر سلباً وبشكل مضطرب على إقتصادات العالم، لاسيما المعرفية منها. فعلى سبيل المثال، لقد كان معدل النمو في أفريقيا 3.4% خلال 2019، وكان متوقعاً أن يصل إلى 3.9% في 2020. ومع ما معدله 5% من ال GDP فحص للموارد التعليمية ( من أعلى المعدلات في العالم) ، فقد كان متوقعاً أن تشهد أفريقيا احياءً عظيماً لقطاع التعليم العالي قبل بدء أزمة كورونا. إلا أن التنبؤات الإقتصادية بعد الجائحة بينت أن الإقتصاد الأفريقي سيشهد خسارة بين 90 و 200 مليار دولار اميركي في 2020، مع ضмор وإنكماش في GDP بمعدل 8 نقاط [10] .

في هذا الإطار، قام التّجمع الدولي للجامعات (IAU)، وهو منظمة غير حكومية منبثقة عن اليونسكو، قام بدراسة تأثير جائحة كورونا على التعليم العالي حول العالم، عن طريق إجراء دراسة إحصائية تمت بين 3/25 و 2020/4/17. وقد بينت الدراسة أن حوالي 60% من الجامعات المنضوية في التّجمع والمشاركة في البحث قد أقلت تماماً جزاء الجائحة. وترتفع هذه النسبة إلى حوالي 80% في القارة الأفريقية ( وتقترب من دراسة البنك الدولي) ربّما للأسباب التي ذكرت سابقاً. بالإضافة إلى ذلك، وفيما يختص بالتّدقّق النقدي، فإن 80% من الذين خضعوا للدراسة اعتقدوا أن الجائحة ستؤثر سلباً على مستوى التّسجيل في العام المقبل. كما أن بعض هذه الجامعات أبدت خشيتها من أن التّأثير المالي سيكون سلبياً جداً [1] .

أيضاً في المجال المالي، فقد أظهرت الدراسة أن 48% فقط من الجامعات ستتلقى دعماً من حكومات بلدانها للتقليل من التّأثيرات السلبية للجائحة [1] . هذا يعني أن أكثر من نصف الجامعات ستتأثر بشكل سلبى جداً من حيث ماليتها العامة، وبالتالي قدرتها على تغطية المصاريف التشغيلية خاصة في مجال البحث العلمي وإنتاج المعرفة أو تقديمها، ما سيؤثر على اقتصاد المعرفة في هذه البلدان. وهذا ما أيّده الدراسة من ناحية تأثير الجائحة على البحث العلمي، بحيث أن 80% من الجامعات أعلنت أن نشاطاتها البحثية قد تأثرت بشكل مباشر [1].

قد يكون التّأثير على البحث العلمي بكافة أبعاده هو الأشد خطورة على اقتصاد المعرفة. فهذا الاقتصاد- كما تمّ تعريفه سابقاً- يقوم على " كميّة" و "نوعيّة" المعرفة- وهذا ما تمّ إيقافه عندما أقلت المختبرات- والوصول إلى هذه المعرفة- وهو ما تمّ إيقافه أيضاً عندما توقّف التّدريس وإقامة المؤتمرات وإنتاج الدورات المعنوية

بنشر الأبحاث العلمية. وعليه فإنّ النَّاتج العلمي العام الذي كان سيصب في مصلحة الزراعة والصناعة، مثلاً، قد تأثر بشكل مباشر وبديهي.

من ناحية أخرى، فإنّ الإضطرار إلى الإستثمار في بنى تحتية كانت المؤسسات الجامعية بغنى عنها قد كلف الموازنات أعباءً إضافية. قد يبدو اللجوء إلى التعليم الإلكتروني عاملاً مساعداً في عملية ترشيد المصارف، إلا أنّ الإستثمار الأولي في البنى التحتية وفي البرمجيات والمنصات ذات الصلة، وكلفة إستخدام شبكة الإنترنت عن طريق الأجهزة المحمولة الذكّية ( لعدم توفّر الشبكة الثابتة في كافّة الأماكن أو لضعفها) قد تكون من الأسباب المباشرة لتردي الأوضاع الإقتصادية للمؤسسة اذا لم تقم بترتيب أولوياتها.

هناك إشكالية أخرى قد تؤثر على مجريات التعليم العالي لسنوات قادمة، وهو موضوع العالمية (Internationalization). وقد كانت العالمية الشغل الشاغل للجامعات في العقد الماضي، حتى أن إحصاءات البنك الدولي كانت قد بيّنت أن توجه الجامعات نحو العالمية هو من الأهداف الإستراتيجية لمعظم - إن لم نقل لكل - الجامعات [9]. وقد تأثر هذا التوجه بعدة عوامل مرتبطة بالجائحة، أهمها وقف السفر - وبالتالي عمليات التبادل (Exchange) سواء للطلاب أو الأساتذة - أو إقامة علاقات التشارك (Partnership) والتوأمة (Twinning)، أو قبول الطلاب الأجانب. هذا الأخير لن يؤثر فقط على مداخل الجامعات والتي هي بأمس الحاجة لها، بل أيضاً على مجتمعات الجامعات والتي ستتقرم لتعكس فقط صورة مجتمعاتها المحلية.

لا شك أنّ الجائحة قد علّمتنا الكثير، إن عن إدارة الأزمات أو التخطيط المستقبلي - القصير المدى و الإستراتيجي - أو عن وجوب التفكير خارج الصندوق. لا بد من البحث بشكل جدّي عن أساليب وطرق رديفة كي لا يترك الطلاب في أتون الأزمة، خاصة أولئك الذين لا يملكون - أو لديهم محدودية في الوصول إلى - الإتصالات الإلكترونية. يجب الإلتفات إلى بعض الحقائق المؤلمة، كوجود الفارق الشاسع في المعلوماتية الرقمية بين بعض الدول والشعوب، وتجب إدارة هذه الحقائق بشكل إستراتيجي وممنهج. فبقدر ما ان إستمرارية المؤسسة هي من أولى الأولويات، فإنّ الوصول إلى ملايين الطلاب المهمّشين يجب أن يكون أولوية وطنية في هذا الوقت المتأزم.

## المراجع

- [1] Giorgio Marinoni, Hilligje van't Land, Trine Jensen. THE IMPACT OF COVID-19 ON HIGHER EDUCATION AROUND THE WORLD, IAU Global Survey Report. Published by the International Association of Universities, May 2020
- [2] Marguerite Dennis. Higher education opportunities after COVID-19. University World News, 09 May 2020.  
[<https://www.universityworldnews.com/post.php?story=20200507152524762>]  
Last accessed on 29/6/2020
- [3] IESALC Report: CORONAVIRUS COVID-19 AND HIGHER EDUCATION: IMPACT AND RECOMMENDATIONS. International Institute for Higher Education in Latin America and the Caribbean (IESALC), 9 Mars 2020.  
[<http://www.iesalc.unesco.org/en/2020/03/09/coronavirus-covid-19-and-higher-education-impact-and-recommendations/>] Last accessed on 29/6/2020
- [4] Timothy Devinney and Grahame Dowling. Is this the crisis higher education needs to have? Times Higher Education, May 14, 2020.  
[<https://www.timeshighereducation.com/features/crisis-higher-education-needs-have#> ] Last accessed on 29/6/2020
- [5] Coronavirus disease (COVID-2019) situation reports. WHO  
[<https://www.who.int/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/situation-reports>] Last accessed on 30/6/2020

- [6] Roberto Mangabeira Unger. THE KNOWLEDGE ECONOMY. Verso, London, 2019.
- [7] A. Oosterlinck and K.U.Leuven. Knowledge Management in Post-Secondary Education: Universities. OECD Reports.[[www.oecd.org/innovation/research/2074921.pdf](http://www.oecd.org/innovation/research/2074921.pdf)] Last accessed on 29/6/2020
- [8] Scott Friedman, Timothy Hurley, and Tiffany Fishman. COVID-19's impact on higher education: Strategies for tackling the financial challenges facing colleges and universities. Deloitte Center for Higher Education Excellence. April 2020. [<https://www2.deloitte.com/us/en/pages/public-sector/articles/covid-19-impact-on-higher-education.html>] Last accessed on 29/6/2020
- [9] The World Bank Data. WB [<https://data.worldbank.org/topic/education>] Last accessed on 30/6/2020
- [10] Wondwosen Tamrat and Damtew Teferra. COVID-19 poses a serious threat to higher education. University World News, 09 April 2020

بريشة الفنان المرحوم على بدرالدين

